

سلسلة كن جيداً، وانطلق

Be Good, Do Good

الاحترام

قصص تربوية

دار الراتب الجامعية

الاحتِرام

لم نتحدَّث كَثيراً على المائِدةِ عندَما كان العَقيدُ في المنزلِ.. وقد تناوَلنا الطَّعامَ بصَمتٍ تقريباً، رغمَ أنَّ أُمي قامَت بتكديسِ سَبانِخ يوكي الخَضراء في صَحني.. إنَّ أُمّي لا تفوِّتُ الفُرصَةَ أبداً.. ماذا يمكنُني أن أفعلَ غيرَ تناولِ الطَّعام! إنّها تعرفُ الكثيرَ من الأسرارِ.. وكانَ سببُ الأَذى الأخيرِ الذي تَسبَّبتُ بهِ لم يصِل بعدُ إلى مسَامِعِ العَقيد.. لم يستطِعْ أنْ ينتَقِم منّي، وبمظَهرِه المعروفِ تستَطيع أن تَراهُ آتيًا .. فتَرى أولاً وجهَهُ العَبوس، ثمَّ اللَّون الهادِئ الذي يَبدأُ من الرقَبةِ، ويغلِّف تَدريجياً وجهَه بتدفُّقٍ، حتّى أنّه يُشبهُ الشَّمندَر إلى حدٍّ بعيدٍ.. لا عجبَ أنَّني كرِهتُ

الخضرَوات بسبَبِه.. لقد شنَّيتُ هُجُوماً عدَداً
من المرّاتِ على الشَّمندَر بشَراسةٍ على المائِدةِ



بواسِطةِ الشَّوكةِ في كلِّ مرّةٍ أُلقيَتْ إليَّ محاضَرةٌ
صارمةٌ من العَقيدِ.. كم كُنتُ أتمنّى لو كنتُ



راشِداً.. آه، لو كُنتُ حُراً. كيفَ يمكنُ أن نَعيشَ في خَوفٍ ؟ تنهَّدتُ بقوّةٍ. نظرَ العَقيدُ الملقَّبُ بـ «بابا» في وَجهي بحدّةٍ.. فأنهَيتُ وجبَتي بسُرعةٍ، وابتَلَعتُ الخضارَ بأسرَع ما يُمكن.

هذا الصَّباح كنتُ قد ضَرَبتُ أخي ضَربةً شديدةً.. وكانَت المشكِلةُ مع لويس أنَّه كانَ يقومُ بتَعذيبي منذُ فترةٍ طويلةٍ. لقد كان أكبَر منّي بسِتِّ سنَواتٍ، ولكنَّ ضربَتي كانَت مؤلمةً حقاً. ففي الآونةِ الأخيرةِ ظلَّ يُنكِّل بي من خِلالِ رفضِه اللَّعبَ مَعي.. كانَ دائِماً مَشغُولاً، وأنفُهُ مدفُونٌ في عُمقِ كتابٍ من هُنا أو كتابٍ من هُناك.. لقد كانَ يُصرُّ على مَدى الأشهُر القَليلةِ الماضِية أنْ أُناديهِ بـ «العُمدَة هيرمانو»! يااااخ!! هل تُصدِّق ذلك ؟ العُمدَة هيرمانو! قد يكونُ معظمُكُم على عِلمٍ





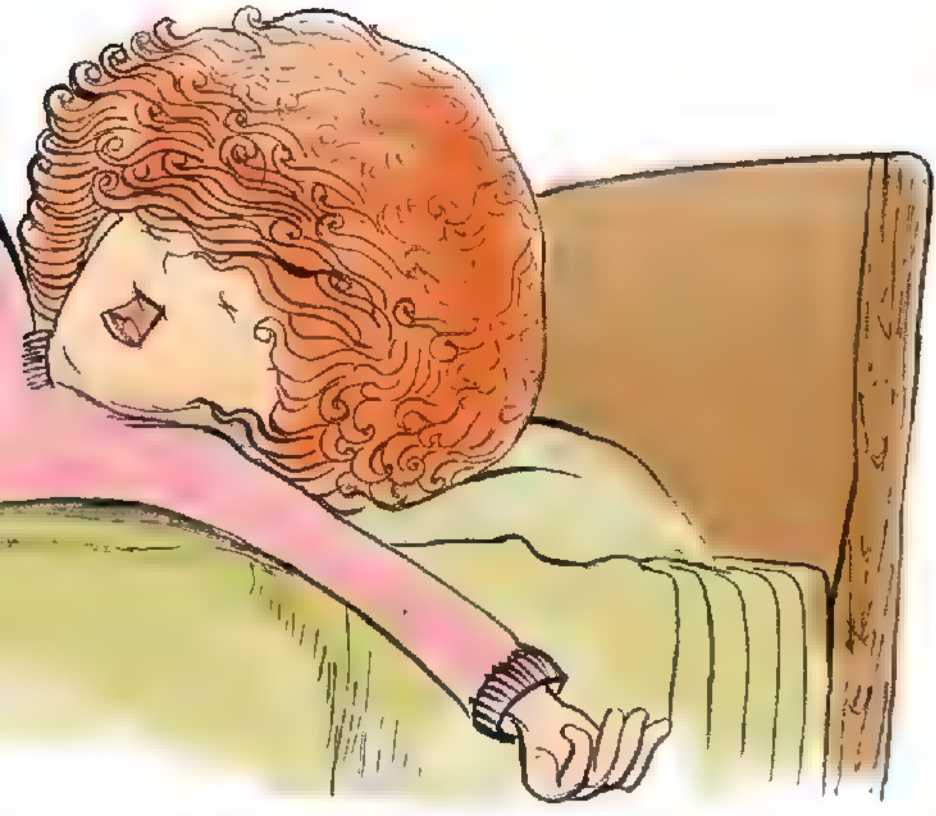


بتلكَ الشَّخصيّةِ، فهو يُسمى بِاحتِرام «أَخُوكُم الأكبَر» بالإسبانيّةِ. ولكن حتّى من يبلُغ من العُمرِ تِسعَ سنَواتٍ يحتاجُ إلى فَترةِ استِراحَة! لا بُدَّ من اكتِسابِ هذا اللَّقَب، وقد كنتُ أشكُّ في ذلكَ، لأنَّ لويس يمتلِكُ عدداً قَليلاً جداً من الصِّفاتِ الشَّبيهةِ بالعُمدةِ هيرمانو. كانت بُنيتُه النَّحيفَة وشعرُه المجعَّد كالمِكنَسَة وأقدامُه الضَّعيفَة لا تُحدِثُ الكثيرَ من الرُّعبِ في داخِلي.. وهذه الأيّام يغنّي بصوتٍ كَريهٍ ويجَعجِعُ كالببغَاء، ولدَيه ورمٌ بسيطٌ على شفَتِه العُليا.. ارتعَدَتُ عندما تخيَّلتُ لويس بشاربٍ.. ولكن هُناكَ مجالٌ لوجودِ شاربٍ واحدٍ فقَط في منزِلنا، وهو العَقيد!

على أيِّ حال، في ذلكَ الصَّباحِ أوكلَت إليَّ أمي مهمّة إيقاظِ لويس، وهو يستيقِظُ عادةً في وقتٍ

متأخِّرٍ، لأنّه... حسَناً، فمعلِّموهُ قالوا لوالديَّ بأنّه «طالِبٌ مَوهوبٌ». لقد كان مَهووساً بحقٍّ، ولكنّ والديَّ كانا فخورَين جداً بِه. وقد كانا بالفِعلِ يقومان بتَحضيرِ قائِمةٍ من الكلِّيّات له، وكانَ لويس قد بدأَ العملَ على تَحضيرِ طلَباتِ الكلّيّة. وهو غارقٌ في أحلامِه هذه الأيّام.. وفقاً لوالديَّ، طَبعاً لويس لا يمكنُ أن يُخطِئ.. وكلُّ شَيءٍ خاطِئٍ بسيطٍ يحدُثُ في المنزِل يقولونَ أنّه خطَئي.. وسيكونُ السؤالُ دائِماً : ماذا فعلتَ يا فيكتور ؟ لو أنّهم فقَط يتوقّفون عن التركيزِ عليَّ لكانَ هذا أفضَل! أقولُ لكُم، إن الجميعَ أصبحُوا مختلّين عَقليّاً. بينَما أنا، (هل قلتُ لكَ أنّ اسمي فيكتور ؟) لا أَحد يهتمُّ لأَجلي، وقد تساءلتُ إن كانُوا سيُلاحِظون لو أنّني اختفَيتُ لبِضعةِ أيّامٍ.





فِي صباحِ ذلكَ اليَوم، وبعدَ أن قُمتُ بهزِّ لويس
عدّة مرّات، وشدِّ شعرِه، ودغدغتِه، كنتُ في



غايةِ الذَّكاء.. كان يشخِرُ بلُطفٍ، وهو غارقٌ في
نَومٍ عَميقٍ.. فوقَعَت عينايَ على طَاولةِ الكَيِّ..



وكانت أُمي قد غادرَت الغُرفةَ منذُ بعضِ الوَقت، وكانَت المكواةُ لا تزالُ مَوصولةً بالكَهرباءِ. قرَّبتُ يدِي بدايةً إليها، فشعرتُ بأنّها تبدو دافِئةً بشكلٍ مُريحٍ.. مرَّرتُها بالقربِ من ظهرِه الذي استدارَ نَحوي، وكنتُ على وشْكِ وضعِها على ظهرِه لمدّةِ نانوثَانية، وإذ بأميّ تمسِكُني. وفي الفَوضى التي تلَت ذلك استَيقظَ أخي من النَّوم، فنظَرَ إلى المكواةِ في يدِي وقالَ وهو يرشُّ لُعابَه من فَمِه أثناءَ الكَلامِ: «ماذا كنتَ تخطِّطُ أيُّها الطِّفلُ الشَّقيُّ الصَّغيرُ؟» وبالتأكيدِ، قامَت أمّي بتَوبيخي تَوبيخاً حادّاً على الفَور.

فِي تلكَ اللَّحظةِ لفَتَ صِياحي انتباهَ العَقيدِ الذي كانَ في البيت في ذلكَ اليَوم، وكانَ دائِماً يبحثُ عن فُرصةٍ لما يسمّيه «تَأدِيبي».. فقضَيتُ نِصفَ يَومي في غُرفَتي.. ولا مانعَ لديَّ بمثلِ هذا العِقاب.. يبدو أن لا أحدَ يرغَبُ بوُجودي على أيّ حالٍ.. على الأقلّ، يمكنُني أن ألعَبَ بمجموعةِ ألعابِ التركيبِ خاصَّتي «ليغو» أو قِراءةِ القصَصِ المصوَّرةِ بسلامٍ في غُرفَتي.

كان لويس لا يتحدَّثُ معي.. وكانَ ينظُرُ إليَّ نظرةَ ازدِراءٍ من وقتٍ لآخَر.. وقد فكَّرتُ بأصدِقائي في المدرسةِ وأنا متشوِّقٌ لرؤيتِهم، فقد كان الصَّيفُ على وشْكِ أنْ يكونَ صَيفاً طَويلاً. وتكونُ العُطلُ الصَّيفيةُ عادةً منتَظرةً بشَوقٍ في منزِلنا.. فهذا هو الوقتُ الذي نذهبُ فيه لزيارةِ جدّي وجدَّتي في





ولايةِ فلوريدا أو لاستِكشافِ مَكانٍ جديدٍ. كنتُ مولَعاً بالرَّحلاتِ الطَّويلةِ، واستِكشافِ المجهولِ، وحتّى بالغُرفِ الضيّقةِ التي نتشَاركها في الفُندُق الصَّغيرِ. ولكن الآن مع كلِّ هذا الحمَاس أُصيبَ



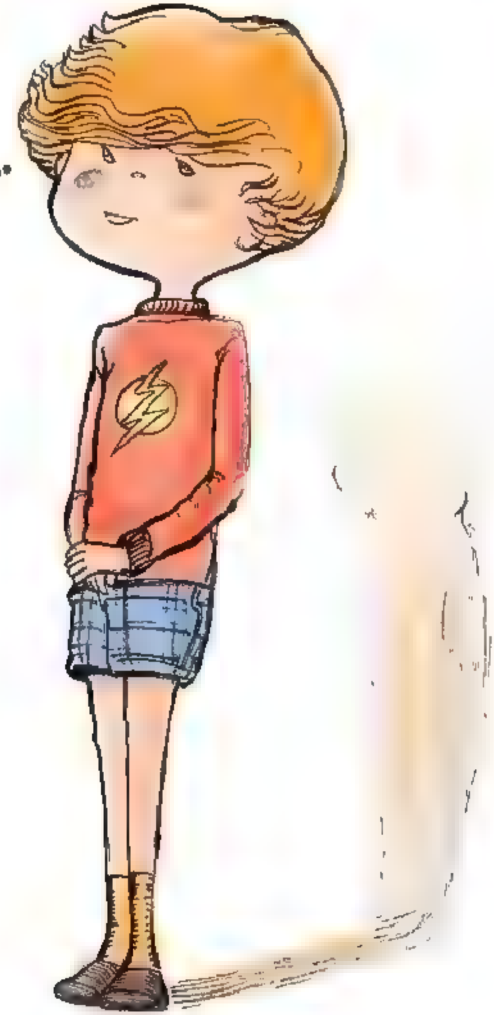
لويس بالحُمّى في المنزِل، ولم يكُن هناكَ الكَثير
لكَي أُرفِّه بِه عن نَفْسي. في ذلكَ المسَاء كان
والديَّ يُريدان الخروجَ من المنزِل، وقد أوصَيا
أخي العَبوس لكَي يعتَني بي. وكلّ ما علَيه القيامُ

به هو حجزُ نفسِه في غُرفتِه، وتركي أَلهو بالأجهِزةِ والألعابِ الخاصّةِ بي.. كم مِن الوقتِ يمكنُ لصَبيٍّ صغيرٍ أن يَقضي في مُشاهدَةِ التلفازِ ؟ لم يكُن هناك شيءٌ مرحٌ بالنسبةِ له لكَي يَلهو خارجَ غرفتِه، فصِرتُ أَبكي وأنتَحِب لكَي يخرجَ ويلعَب معي.. ولم يجعَلني هذا أشعُر بأنَّني محترمٌ بعدَ ذلك.. كنتُ قد توسَّلتُ لأمّي كَي تأخذَني معَها، فقالَت لي : «إنَّ الأشخاصَ الكِبارَ فقَط يذهَبون إلى ذلك الحَفل». فقُلتُ لها : «سوف أكونُ جيّداً وهادِئاً مثلَ الفَأرة»، في محاولةٍ لإظهارِ البَراءةِ قدرَ الإمكانِ. فجاءَ التحذيرُ واضِحاً من العقيدِ : «أنتَ ولدٌ جيّدٌ الآن»، فلَم يترُك لي أيَّ خيارٍ غير البَقاءِ مع أَخي في المنزلِ.

I will be good

as quiet

as a mouse.





بدَت أمّي وكأنّها تعتَذِر، ثمَّ قبَّلتني قُبلةً رقيقةً، وقالَت لي أن أدعَ أخي يعرفُ إذا شَعرتُ بالجوعِ. وكنتُ على يقينٍ بأنَّ لويس سينتَقمُ منّي عن طريقِ تَجويعي حتّى الموت.

وبعدَ أن خَرجا، أحسَستُ بطولِ الوقتِ، فهو يمرُّ ببطءٍ شديدٍ عندما لا يكونُ لديكَ ما تفعَله.. شاهدتُ بعضَ الرُّسومِ المتحرّكةِ لبعضِ الوقتِ، ولكنَّ سُلوكَ دورايمون لم يُشعِرني بالحماسةِ لفترةٍ طويلةٍ. وعند السَّاعةِ السَّابعةِ، تناولتُ بعضَ شَطائرِ الجُبن، ثمَّ تزوَّدتُ ببعضِ السُّكَّريّات (فأنَا أُحبُّ العِلمَ)، ثمَّ أطلقتُ بعضَ الصَّرخاتِ المدوّيةِ التي تشقُّ الآذان لكَي يخرجَ أَخي، ولكنْ لم يكُن هناكَ أيّةُ استِجابةٍ. ثم سمعتُه يقولُ بصوتٍ حادٍّ: «اخرَس يا فيكتور!». فبكيتُ مرَّة أُخرى وقلتُ: «ساعِدني، آآآآآآآآآآآه».



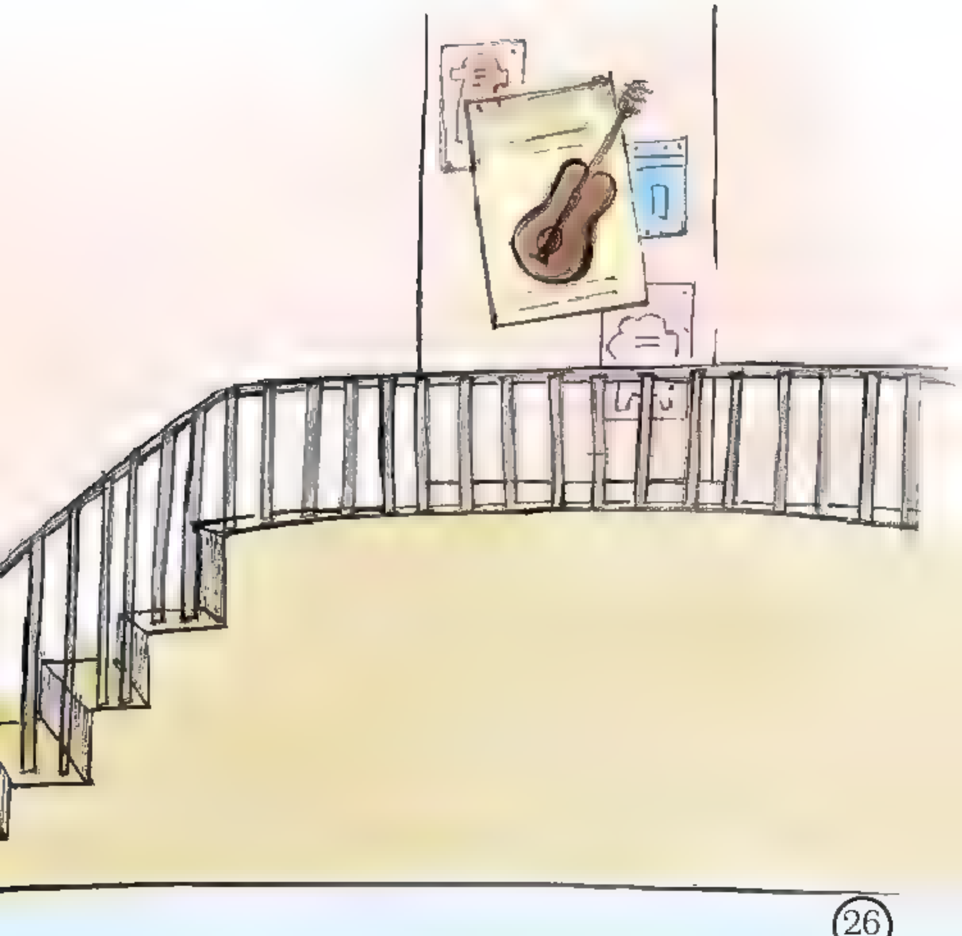
كنتُ أعرفُ أنَّني أتصنَّع، ثمَّ ركضتُ أختَبئ خلفَ الأريكةِ أنتَظر بفارغِ الصَّبرِ.. وبعدَ خَمسِ دقائِق استَطَعتُ أن أسمعَ خُطاهُ، ثمَّ نَاداني قائِلاً: «فيكتور!! فيكتور! هل أنتَ بخَير؟ فيكتور...!

ففكَّرتُ في نَفسي: أيُّها الفَتى، هل يمكنُه أن يهتفَ بصوتٍ أعلَى! بقيتُ دونَ حركةٍ كالميتِ أحبِسُ أنفَاسي.. انحنَى لويس فوقَ الأريكةِ وأطلَّ برأسِهِ نحوَ الأسفَل، ثمَّ أمسَكَ خصلةً من شَعري.. فصرتُ أبكِي وجلستُ بشكلٍ مستقيمٍ أفركُ رَأسي.. لم أستطعْ أن أتمالكَ نَفسي من الضَّحِكِ وأنا أنظُرُ في وجهِه الورديِّ المغفَّل.. فصاحَ في وَجهي: «أنتَ أحمَق!». لقد عِشنَا مباراةَ مُصارعةٍ لبضعِ دقائِق.. وسرعانَ ما تخلَّصتُ منهُ وركلتُه بقدَمي، ثم ركضتُ هارِباً أبحثُ عن مكانٍ آخَر أختبئُ فيه.



ولكنَّ لويس لم يلحقْ بي.. واستَطَعتُ أن أسمعَ الضَّربةَ العَنيفةَ لإغلاقِ بابِ الغُرفة.

وبعدَ عَشرِ دقائِق رنَّ جرسُ البَاب. من قد يَكون؟



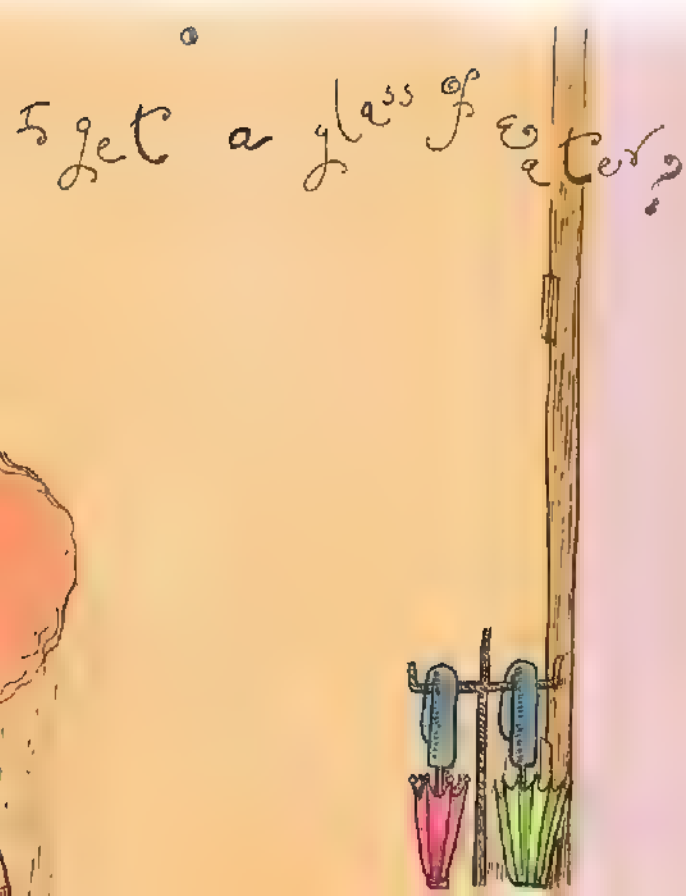
كنتُ مَسروراً جِداً لاحتِمالِ وجودِ إنسانٍ آخَر
خلفَ بابِ المنزِل. لم يتحرَّك لويس خارجَ غُرفتِه
ليأتي ويفتَح البَاب. كانت الموسيقَى المسمُوعة





من غرفتِه صاخِبةً جِداً، وكنتُ اليومَ بالتأكيدِ سأَشِي عليهِ لأُمي وأبي.. وهذا يَعني أنَّه يستحقُّ الضربَ، وليس كمَا يحصُل في كلِّ مرّةٍ.. بكيتُ من الظُّلمِ الذي شعرتُ بهِ، فالحياةُ بالنسبةِ لصبيٍّ في الصفِّ الخامِس كانَت صعبةً بما فيهِ الكِفاية. فصعدتُ بجِسمي النَّحيلِ والقَصير على كُرسيٍّ صغيرٍ دون ظَهر أو ذِراعين، ورحتُ أنظرُ من خِلالِ ثقبِ البَابِ. ثم سألتُ بأعلَى صَوتي : «من الطَّارِق ؟». فقالَ الصَّوتُ : «إنَّه أنا». فسألتُ مرةً أُخرى : «من أنتَ ؟». فردَّ الشخصُ الذي في الخارجِ : «أنا ديفيد! هُناك طَرد بريديٌّ للعَقيد». فتحتُ البابَ بضعَ بوصَات، وقفلُ الأمانِ ثابتٌ في مكانِه، فبُهرَت عينايَ بشَابٍّ متأنّقٍ جداً. فقالَ هذا الرجلُ الذي يَبدو لَطيفاً : «مرحَباً، هل هذا

منزلُ والدِكَ ؟» فقلتُ له : «لا، ولكن يمكنُني أن آخُذَ الطَّرد» وهذا ما كنتُ أقولُه تماماً عادةً على الهاتِفِ، فشعرَ بالحرجِ والضّيقِ. فأومَأتُ برَأسي بقوةٍ وقلْت : «من المفترَضِ أن ألتَقيهُ مساءَ اليَوم، وسأُعطيه هذا الطَّرد، هل هذا يَفي بالغَرَض؟»،



فقالَ : «بالتّأكيد يَفي». كان هناك صُندوقٌ ملفوفٌ بالورَقِ البُنّي مع عُنوانِ منزلنا ملصَق علَيه.
فقُلت له : «ذهبَ هو وأُمي إلى حَفلة». فأجابَ : «أوه، حسَناً». ثمَّ سأَل : «مممممم.. هل يُمكنُني الحصولُ على كُوبٍ من الماءِ ؟».

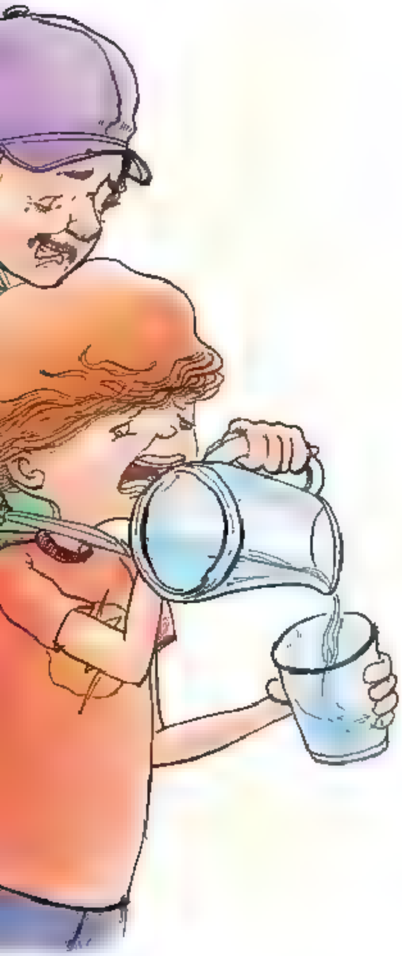


فأجبتُ بفَرَحٍ : «بالتّأكيد!». ثمَّ فكَّرتُ في نَفسي : يا لَه من رَجلٍ مِسكينٍ، لقد كانَ هذا اليَوم حارّاً جِداً. فتحتُ البابَ للسَّماحِ له بالدُّخولِ، وحسبتُ أنّه رجلٌ أمينٌ. كان والدِي رجُلاً مهمّاً، وغالباً ما يأتي إلينَا الكثيرُ من الزُّوارِ.



ولا يمكنُ أن أعطيهُ الماءَ من خِلالِ البابِ نصفِ المفتُوحِ، فمِن شأنِ ذلك أن يكونَ وَقاحةً صريحةً. ويبدا أنّه ممتنٌّ جِداً لأنّني رحَّبتُ به في غرفةِ الجُلوسِ وذهبتُ إلى المطبَخِ. وبينَما كنتُ أسكُبُ الماءَ المبرَّد في كوبٍ زجاجيٍّ، إذ بي





أشعُرُ بشَيءٍ باردٍ يضغَطُ على رقَبتي! نظرتُ إليهِ وأنا أفكِّر، هل حَقاً وضعَ هذا الرجلُ سِكّيناً على رقَبَتي ؟ يااااه! فصرخَ قائِلاً :

«أينَ هي مفاتيحُ الخَزنة ؟»، واختَفى سلوكُهُ



اللَّطيف نهائيّاً. إنّني مجرّد صبيٍّ صغيرٍ، ولا يمكنُني أن أتولّى مهمّة رِعايةِ الخزنةِ أو المفَاتيح. فقلتُ لنَفسي : «فكِّر أيُّها الأحمَق، فكِّر، قبلَ أن يقطَعَكَ إلى نِصفَين». فأجبتُ مرتعِداً بالقَول :

«أنَا لا أعرِف». وقد ركلتُ نَفسي في تَفكيري أَلفَ مرّةٍ، فطوالَ الوَقت كانَ والدايَ يحاضِران لي عن الغُرَباء، فتراءَت في عَقلي كلُّ تلك المشاهِدِ على



شَكلِ وَمَضاتٍ سريعةٍ. وكنتُ إما على وشْكِ
البُكاءِ أو الإغماءِ.. ثمَّ جرَّني إلى غرفةِ النَّومِ..
مشَيتُ باضطِرابٍ وتعثُّرٍ نحو الداخِلِ، محاوِلاً

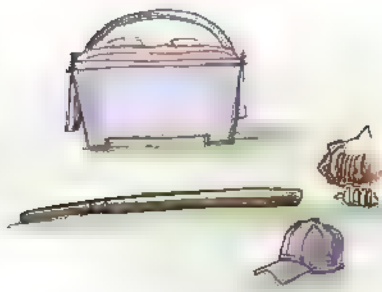


تذكُّر ما إذا كنتُ قد رأيتُ أمّي يَوماً تأخذُ المفاتيحَ من أيِّ مكانٍ! أينَ هُو بحقِّ الله أخي عَديم الفائِدة؟ سوفَ يندمُ كثيراً لبقيةِ حياتِه إذا متُّ أنا اليَوم.. سوفَ يقتُلُني والدايَ على أيّ حال.

وفَجأةً سمعتُ دَويّاً عالياً يليهِ صوتُ ضربةٍ! ثمَّ شعرُت بأنّ القَبضةَ زالَت عن عُنُقي، فاستدَرتُ من حَولي، وإذ بلويس كان واقِفاً هناك، يرتعدُ جسمُه، ومضربُ البيسبول في متناولِ يديهِ.
وقعَ الرجلُ في غَيبوبةٍ على الأرضِ، مغمَضَ العينَين.. ولم يسبِق لي أن شعرتُ بالسَّعادةِ الغامِرةِ لرُؤيةِ أخي في حيَاتي كلِّها! فقالَ بصَوتٍ غَليظٍ للمرّةِ الثانيةِ هذا المسَاء: «هل أنتَ بخَير؟»



هذه المرّة، لم أقهقِه أو أشدّ على معِدَتي في نَوبةٍ من الضَّحِكِ الهستيريّ، لقد فعلتُ ما هو غَير متوقَّعٍ إذ احتَضَنتُ أخي.. لم أستَوعِب أنني كنتُ



أبكي وأنا أتشبَّثُ بهِ بقوّةٍ. وكانَ هو يَبكي أيضاً، وأنا أشهَقُ بالبُكاءِ بصَوتٍ عالٍ وأقولُ : «أنا بخيرٍ أيُّها العُمدَة هيرمانو!» فاهتزَّ لويس من الضَّحِكِ



عندَما سمعَ بما نادَيتُه به. ثمَّ قالَ: «أوه، فيكتور! أنتَ مُضحكٌ حقاً»، والدُّموعُ تنهَمِرُ على وجهِه.

كان هناكَ الكثير من المأسَاةِ عندَما عادَ والدانا ووجَدا المنزلَ يعُجُّ برجالِ الشُّرطةِ والجيرانِ.. ولم أرَ العقيدَ يبدو مُستاءً طوالَ حَياتي كما كانَ في تِلك اللَّيلةِ. ثمَّ أمضَى والدايَ وَقتاً صَعباً في مواساةِ صَبيَّينِ شاحِبَينِ جِداً وخائِفَينِ.. قامَت الشُّرطةُ بتحديدِ هويّةِ الشَّخصِ الدَّخيلِ وكان اسمُه غابرييل موراليس، وهو محتالٌ سيِّءُ السُّمعةِ مطلوبٌ ومتَّهمٌ أيضاً بعددٍ من عَمليّاتِ السَّطوِ والسَّرِقةِ.. والحمدُ لله، كانَ لا يزالُ على قَيدِ الحيَاة.





لقد عانَى من مجرَّدِ كَدمَةٍ سيّئةٍ على رأسِه، وكان
هذا الرجُل الشِّرير يراقِبُ منزلَنا لبعضِ الوَقت،
وعندما رأَى والديَّ يخرُجان في ذلكَ المسَاء
تاركَين ولدَين صَغيرَين فقط في المنزلِ، حصلَ



على فُرصةٍ ذهبيةٍ لدخولِ المنزِل وسرقتِه. ولكنَّه بالتأكيدِ استَخفَّ بقُدرةِ أَخي. تخيَّل، لقد خرجَ فاقِداً للوَعي بسببِ صبيٍّ في الخامِسَةَ عشرَةَ من عُمرِهِ!

كان لويس بالتّأكيد من الشُّجعَان.. وهو بالرَّغمِ
من كلِّ شَيءٍ مجرَّد صبيّ.. ولكنّه كانَ كرجُلٍ



بضِعفِ حَجمِه! وكلّما فكَّرتُ في ذلك، امتَلأ قَلبي طُمأنينةً وشعرتُ بفخرٍ لشجاعةِ أخي.

كانَ أمراً مثيراً للدَّهشَةِ، ولكنّني فِعلاً حصَلتُ على عِناقٍ حميمٍ من أبي وأمي على الرَّغمِ من غَبائي. ولعدّةِ أسابيع بعدَ ذلك، صِرنا نجتمعُ مع بعضِنا البَعض في المساءِ! وقد قرَّرتُ أن لا أفتحَ الأبوابَ لوَقتٍ طويلٍ جِداً. أمّا بالنسبةِ لأَخي، فقد أصبَحَ بَطلي الآن. بالطَّبعِ، لا زلنا نتَقاتَل في كلِّ وَقتٍ كما كنّا من قَبل، ولكنَّني أعلمُ الآن أنَّه هُنا من أَجْلي... عُمدَتي هيرمانو!

العِبرَة من القِصّة:

الاحتِرامُ هو شَيءٌ عليكَ أن تكسَبَهُ،
فلا يمكِنكُ إجبارُ الآخَرين على احتِرامِكَ.